مداخلة بعنوان

مامي اسماعيل "رائد الرحلة الجزائرية الحديثة"

الخاصة

بندوة الرحلة في الأدب الجزائري

صورة الواقع و جمالية المتخيل

المحور الثاني:التعريف بالرحلات والرحالين الجزائريين قديما وحديثا.

د. عيسى بخبتي/ أستاذ محاضر

المركز الجامعي بلحاج بوشعيب –عين تموشنت–

يشكل أدب الرحلة الجزائري الحديث الفعل المتناقض في الثقافة والأدب الجزائري الحديث، فهو ذو الكم المعتبر من النصوص، وفي الآن نفسه تشكل مادته الثقافة المنسية في تراثنا الحديث.. وفي هذا التناقض تكمن عدة تساؤلات.. من أهمها؛ إذا كانت المدونة الرحلة الجزائرية ذات قيمة كمية معتبرة، أين هي هذه الرحلات وأين مظان تمركزها؟ ما السبب أو الأسباب التي دعت إلى تناسي هذه المادة؟ من هي الأقلام التي كانت تكتب هذه الرحلات؟ ما مضمون هذه الرحلات؟ وما أسلوبها؟

إن التساؤلات المشروعة المدونة أعلاه، هي فيض من غيض مما تعاني منه الرحلة الجزائرية بله الأدب الجزائري عموما، قديمهوحديثه ومعاصره.. والإجابة على مثل هذه الأسئلة، لا يستوعبها المقام.. بيد أنه يمكننا أن نخوض في نموذج فريد من بين هؤلاء الرحالين، حتى نبيّن أننا على شرع فيما ندّعيه، وحتى يمكن للقارئ أن يدرك جهله بالمادة الرحلية الجزائرية وأهم كتابها.. وحتى تكون في الآن نفسه هِمّة وتحفيزا على الخوض في البحث عن أقران لهذا الرحالة النموذج.. ونقصد بهذا النموذج الرحالة إسماعيل مامي.

1. الرحلة الجزائرية الحديثة: مسيرتها

تعد الرحلة الجزائرية الحديثة وجها من وجوه الثقافة عموما، كما أنها بوجه أخص هي فن تعبيري من فنون الأدب الذي حضر بأوجه متعددة، شأنه شأن فنون التعبير الأخرى، بيد أن للرحلة شأن خاص، واستراتيجية خاصة.. ففي اطلالة بسيطة على ما قيل عن هذا الفن على المستوى المحلي، أنه لا يتميز بالقوة لا كما، ولا نوعا، وبالكاد نجد من أعطى الوقت لهذا المجال فعبر عنه بصدق وبموضوعية التي تليق به.. في اعتقادنا أن ما عدا الدكتور عمر بن قينة لم نجد من أفرد لموضوع الرحلة الجزائرية الحديثة حديثا معتبرا..

لقد غطى عمر بن قينة الرحلة في النثر الجزائري من خلال مساحة كبيرة، وأخرج من طيات هذا التراث ما جعله يتبوأ الريادة في مجاله.. والحق أن هذا الرجل شهد له أنه أخرج نصوصا ما كانت تعرف في الساحة الأدبية الجزائرية، وخاض فيها التحليل والدراسة من خلال ما نجده في كتابيه "اتجاهات الرحالين الجزائريين في الرحلة الجزائرية الحديثة" و"الشكل والصورة في الرحلة الجزائرية الحديثة". وانطلاقا من إيماننا بأن الباحث الواحد لا يستطيع أن يغطي الموضوع كله، استجبنا لهذا الادعاء وقمنا بعملية مسح أخرى فتبين لنا من خلال ذلك أن بن قينة بالرغم من مجهوده المعتبر فقد أغفل نصوصا ذات شأن.. ومنه قمنا بجمع كل المدونة في حدود ما استطعنا جمعه[1]، ومن

---

[1]- انظر عيسى بخبتي؛ - جمهرة الرحلات الجزائرية الحديثة، 7 أجزاء، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، 2017.
وللمؤلف نفسه؛ أدب الرحلة الجزائري الحديث، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، 2017.

خلال تحليلنا لها أيضا، تبين لنا أن الرحلة الجزائرية في حاجة إلى إعادة نظر، وإلى دراسات تمنح رد الاعتبار لهذا الفن المغيّب.

وانطلاقا من هذا نقول: إن الرحلة الجزائرية الحديثة، بدأت مبكرة، حيث شهدت في القرن التاسع عشر نصوصا ذات قيمة تاريخية وفنية، بداية من رحلة الأمير عبد القادر إلى الحج، ثم رحلات كل من ابن صيام وسعيد بن علي الشريف، وولد قاضي، والفكون، وكلها كانت باتجاه فرنسا.. وعند استفحال الصحافة في الجزائر، لم يغب النص الرحلي، بل اشتد عوده، وأسهم إسهاما عظيما، وخدم هذا النص الطوائف المختلفة في الجزائر، وكان لسان حال كل طائفة، فقد كان للإصلاحيين نصوصا وللطرقيين نصوصا وللممالئين نصوصا وللوطنيين نصوصا، خدمت هذه النصوص –كلها– أصحابها تارة في الاستطلاع الميداني وإطلاع الناس على الحالة الاجتماعية والأخلاقية والدينة والثقافية للجزائريين، كما أنها كانت تمثل بوقا دعائيا لكل طائفة..

وتختلف نصوص الرحلات الجزائرية الحديثة باختلاف أصحابها من حيث القوة في الأسلوب، والبعد الثقافي والنفسي.. ومن ثم كانت النصوص على مستوى الحجم يتراوح بين المقال البسيط الذي يحصره صاحبه في مقال تتضمنه صفحة من جريدة، كما كانت بعض النصوص تشكل حلقات متتالية طويلة، وكان أغلب أساليب هذه الرحلات عبارة عن تقارير يرصدها كتابها مشكلين منها نصوصا تحمل فيها بين التقريرية والفنية لخصوصية الكتاب الذين كان معظمهم كتابا وشعراء وصحافيين وسياسيين..

كما أنه من ناحية أخرى؛ لم تعرف الرحلة الجزائرية النص المستقل في كتاب إلا نادرا لصعوبة النشر، وتضييق مساحة الحرية التي كانت بيد المستعمر، لذلك كان اللجوء الحتمي نحو الصحافة التي وفّرت يسرا كبيرا على الكتاب، فشجعت كل أنواع القول ومن ذلك الرحلة التي عرفت نشاطا، ما عرفته الرحلة الجزائرية قديما بجميع عصورها.

ومن أهم الكتاب الذين كان لهم إسهامات كبيرة في هذا المجال، نجد ابن باديس، وعبد الحفيظ الهاشمي، وأحمد حماني، وحسن الوارزقي، ومنصور الغسيري، والابراهيمي، والسعيد الزاهري، ومحمد العابد الجلالي، وغيرهم كثير. بينما يشكل الرحالة إسماعيل مامي أكبر رحالة على مستوى جميع الأصعدة، حيث تعددت اتجاهات رحلاته، وكثرت نصوصها وعرفت قدرا من الطول في حجمها، وقيمة أدبية وعلمية ميزته عن جملة الرحالين الآخرين.

2. التعريف بالرحالة إسماعيل مامي

هو اسماعيل مامي ابن علاوة ابن عبدي بن الولي الصالح سيدي شبلي دفين قسنطينة، الكرغليذو الأصول التركية، محرر جريدة النجاح، التي كانت تصدر في قسنطينة وهي أكبر جريدة على الإطلاق في العهد الاستعماري، كاتب مقتدر، من مواليد مدينة قسنطينة في 18 أكتوبر سنة 1899م ـ 13 جمادى الثانية 1317هـ، تلقى تعليمه بجامع الزيتونة بتونس، وأخذ بها على نخبة من كبار علماء ذلك الحين كالعلامة عثمان بن المكي، والشيخ صادق النيفر، والعلامة حسونة النيفر، والشيخ عبد الرحمن القيرواني، والعلامة الشهير سيدي معاوية التيمي.

ولما كانت له قدرة وحيوية في العمل الصحفي جلبته جماعة جريدة الصديق التي كانت تصدر بعاصمة الجزائر كعضوعامل، اشتغل بها ما يقرب من السنة كاتبا مصففا في مطبعتها، فأظهر مقدرة، وكسب رضى مسؤوليها،ثم انتقل إلى جريدة الأقدام بالعاصمة أيضا، فأسس أول عدد صدر منها صحبة الأمير السيد خالد بن الأمير عبد القادر محي الدين، إلى أن انتقل الأمير المذكور للإسكندرية، فانتقل مامي

اسماعيل لمسقط رأسه[قسنطينة] فاجتمع بالأديب الفاضل، النابغة المقتدر، السيد عبد الحفيظ بن الشيخ الهاشمي، واستعان به على القيام بشؤون إدارة جريدة النجاح التي كان أسسها المذكور بقسنطينة، وانحبس عن إصدارها نحو الستة أشهر، حتى اجتمع به فقوى على إصدار عددها الجمعي إلى أن صارت تصدر ثلاث مرات في الأسبوع، ثم صار إصدارها يوميا، ولما كان له من الباع في الكتابة والتحرير، وبث حبها في القلوب، صارت تعد الجريدة الوحيدة في الوطن الجزائري بين عربية وفرنسية.

توفي بقسنطينة ودفن فيها سنة 1958.

3. التعريف بنصوص الرحالة إسماعيل مامي

1- حول الاحتفال بالجامع-" لإسماعيل مامي سنة 1926

2- "جولة نائبنا بالغرب الجزائري والقطر المغربي" لإسماعيل مامي سنة 1924.

3- "جولتي في المغرب وبلاد الأندلس،" لإسماعيل مامي سنة 1928.

4- " سياحة بالمغرب الأقصى، سياحة محرر النجاح" لإسماعيل مامي سنة 1931.

5- سياحة استطلاعية 1927

6- نظرة بعد أخرى؛ على جناح السفر 1928

7- عن بلاد الصحراء 1928

8- فيالوطنالقبلي –جولة نائبنا بالوطن القبائلي

9- مؤتمر جمعية أحباس الحرمين الشريفين الذي انعقد بعاصمة الإيالة الجزائرية

10- أيامجمعيةالميعادالخيريبباريس- زيارة أعضاء الجمعية لمسجد باريس

11- مؤتمر جمعية أحباس الحرمين الشريفين- سفر الوفدين التونسي والجزائري لرباط الفتح بالمغرب

12- رحلتي إلى الأندلس –كلمة عن المغرب الاسلامي. 1930

4. 1. بنيةالرحلات عند إسماعيل مامي

4. 1. 1. النص عند اسماعيل مامي والوعي بالرحلة

ينطلق اسماعيل مامي من أبجديات الرحلة انطلاقا من عمق النص التراثي ابتداء من تنميط النص بأبعاد نصية معاصرة.. تبدو نصية الرحلة انطلاقا من عناوينها التي أشبعها بالتحيين والهيمنة... حيث نجده في أغلب نصوصه يشهر العنوان الصريح بالرحلة وتارة بالسياحة وأخرى بالجولة.. وهي كلها تدخل في باب الرحلة الصريح.. وليس السبيل إلى تحقيق نص رحلي إلا انطلاقا من مسلمات البنية التي تحيله إلى الصنف الاجناسي، كون الرحلة أدبيا تحتل هذا المركز في تصنيف المؤسسة العلمية للأدب انطلاقا من أدبيتها التي تتجسد في شكل الرحلة العام.. ولما كانت الرحلة زئبقية الضبط، ومستعصية الحصر، كونها تشتغل على توليفة من العلوم والأخبار والآداب، فإنها في الآن نفسه، تتميز بنصها المائع.. غير المحصور بقاعدة ثابتة تحدد معالمه الفنية ضبطا صارما.. وهو ما جعل الرحلة على المستويين ينجو من سلطة هذه المؤسسة..

وقولنا هذا ليس التصريح بعدم قابلية النص الرحلي للوقوف أمام ضوابط محددة حتى نتبين منه صورة نستطيع من خلالها التعرف على نصها.. ولكن ادعاؤنا يدخل ضمن القول، إن الشكل النمطي للنص الرحلي والذي يتميز

بسرديات الانطلاق والعبور والوصول فالعودة. هو ما لا يتحقق دائما في النصوص الرحلية وبالأخص الرحلات الحديثة والمعاصرة.. لذلك قد لا نجد هذه الدائرة النمطية إلا نادرا.. ومنه يتشكل النص الرحلي على بنية سفر مهيمنة تحقق سردا ذاتيا مذوتا للأحداث والمشاهدات، تسمح للقارئ أن يتفاعل مع ذات كاتبة ترصد رؤى العين وما تنقله الأذن وفق شهادة الراوي.. ومنه يتجلى النص الرحلي أدبيا بشكله الذي يعتمد على هذه العناصر وفق ما فرضته أدبية الأدب، ومنه أدبية الرحلة..

إنه من باب أولى أن نعتبر نصوص اسماعيل مامي نصوصا رحلية بما أننا أدرجناها في باب الدراسة، وما كان الاعتراف بها إلا من هذا المنطلق.. وتتجسد نصية رحلات مامي في أطوارها عبر سرود حقق الكثير من أبجديات الرحلة.. فهو لا يعدو يذكر سبب سفره، وأحيانا إعداد العدة، ثم سرد المحطات المختلفة أثناء مساره الرحلي بلازمة الوصف، فهو على حد قول الموذن "يسرد ليصف ويصف ليسرد"[1]، فهو يذكر مثلا: "**ثم غادرنا إلى العَفْرون وهي قرية صغيرة مستقرّ الخَدَمة ومركز المتفلّحين، والبلاد المتقدّمة كلها ذات بساتين زاهرة وأجنة قطوفها دانية وغلل متنوّعة، أما أرضها فخير أرض تزرع**"[2] بل أحيانا كثيرة يذكر حتى وسائل النقل التي تضيف لشكل النص بعدا بنيويا من مكونات السفر، إذا اعتبرنا أن السفر لا يتم إلا عبر هذه الوسائل.. فالاستشهاد بها تصريح بالانتقال من مكان إلى مكان آخر، وهذا الذي يجسد بنية السفر في أبعد ممكناته: "**ثم غادرت مستغانم فركبت القطار الوهراني حيث نزلت بسان لو، وهي بلدة عربية خلافا لاسمها، صغيرة بجدرانها ومنازلها كبيرة بقطانها وأعيانها**"[3]

ويتماشى النص الرحلي عند مامي مسايرا لمنهج الرحلة واختلاف اتجاهاتها التي تحقق ذاتيا فعلا مختلفا نحو الآخر، فتشعر حينها بسلم ارتقاء السرد من مجرد نقل الأحداث والتقرير عنها إلى بعد الاختلاف الذي يصل إلى حد لا تطابق عندما يكون الآخر "غيري"، مثل قوله أثناء تواجده بمالطة: "**وما كدنا نتوصل لشيء لولا اتخاذنا دليلا (قيد) من المالطيين ما قصّر في اطلاعنا على ما في زوايا البلد من المتاحف والمستظرفات، وحيث كان صاحبنا مالطيا فهو متعبّد ناسك بالطبع، فقد كانت وجهته دائما مائلة إلى إشرافنا على الكنائس والمناسك المقدسة لدى العموم، فدخلنا بضع كنائس ما كنا لنعرف مثلها عندنا**" وهنا كان لا بد من دليل أي من عين ثانية غير التي يرى بها هو، فما دام أن الرحلة تقوم على المشاهدة التي تُعدّ مادة الخطاب، أو الخطاب الخام، فإن هذا الخطاب قد يتعذر عندما تتعذر الرؤية بفعل عدم الفهم في أمكنة مجهولة، يبدّد ضبابيتها دليل عارف بالمكان الذي يصبح حينها مكانا مألوفا مع الوقت حين تتحول العين إلى رؤية عبر السمع تتتبع "الحكي من خلال عيني الراوي (أو طرف مستمع) متوفرين على تفسير لكل خبر: متى وكيف عرفه الراوي أو المستمع نفسه"[4] حينها يصبح الرحالة متجاوزا لفعل المألوف إلى انفصال المرئي عن مرجعه الثقافي فيصبح ما ينقله من أمور أقربها إلى الغرابة، "... **فلا غرابة إذا كانت البلاد تساوي الكنائس التي هي مائتان قيمة ومساحة، فإنه كاد أن لا يخلو شارع من كنيسة أو معبد أو تمثال في زجاج أمامه الأنوار أو تمثال حجري أو غير ذلك، ومثله في الحانات والحوانيت**

---

[1]- عبد الرحيم المودن، أدبية الرحلة، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط1، 1996، ص 7.

[2]- جريدة النجاح، العدد 130، السنة الرابعة، الجمعة 9 ربيع الأول 1342، 19 أكتوبر 1923.

[3]- جريدة النجاح، العدد 138، السنة الرابعة، الجمعة 13 جمادى الأولى 1342، 21 ديسمبر 1923.

4- حميد لحميداني، بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي،المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1991، ص 46

والدور، فالقوم من الزاهدين العابدين المتفانين في الكنيسة وتوابعها، فإن كانت هناك بلدة في أثر رومة فلا أظنها غير مالطة، أما القسّيسون والبّاصون والرهبان فهم عبارة عن مئات وكلهم يجُولون في الشوارع ويجالسون العوام في المقاهي والأندية"[1].

كما أن الرحلة في الأرجاء العربية التي تعد آخر "جوانيا" فإن الاحساس بالمطابقة في المرجعية الثقافية يستشعرها القارئ من سرد الرحالة الذي لا يبدي أية غرابة، بل بالعكس فإنه في ذلك يَعدّ نفسه أنه ينقل كما وأنه ينقل عن أمكنة محلية، وكان ذلك متحققا في رحلاته العربية بمصر وليبيا والمغرب، مثل قوله في المغرب: **"لفاس أسوار متينة وأبواب كثيرة أشهرها باب فتوح وباب الجلود وباب الأمّة وواحة فسيحة تسمّى الملاّح مختصة بسكنى اليهود وتجارتهم، وفيها قهاوي أوروبية ونزلات (أوتيلات) ومجتمع[2] للعربات المتجولة بالبلد ومحطة لأوتومبيلات السفر"[3]**وهو الأسلوب والصيغة نفسها إذا ما نقلنا عنه نصا من رحلاته الداخلية، خذ على سبيل المثال: **"حلَلْت المدينة العتيقة والأمطار والرياح العواصف ناقمة على الجوّ المتلبّد بالسُّحب والرّعد والبرق، فبِتُّ ليلة في المذاكرة والأنس صُحبة طلبتها الفضلاء: القاضي، المفتي، الباش عدل.. الخ. وفي الصباح خرجتُ للتفسّح في المدينة فإذا هي مازونة العام الماضي، والقرن الماضي، بل ازدادت همًّا بفساد النُّهوج وتراكم الأوحال وفقدان الضوء.."[4]**

ومن جهة أخرى تحقق نصوص رحلات مامي الكثير من القضايا الرحلية التراثية كاعتمادها على الفهرسة من شيوخ وعلماء وأعلام مختلفة المشارب، فكلما دخل بلدة أو بلدا إلا وخص أعلامه بالحديث سواء أكانوا علماء أو أدباء أو صحافيين أو طرقيين أو إصلاحيين، أو قضاة، وغيرهم..

ومما يحقق نصية رحلات مامي أيضا توثيقه للمكان جغرافيا باعتمادية على الوصف الموجز، من خلال مسافات بعض المناطق عن بعضها البعض، كما أن مامي يعد نصه متماسكا بخصوصيات النص الرحلي حين يجمع بين التاريخ والجغرافيا أي بين الوصف والسرد في فقرة واحدة **"أول قرية من قُرى الزّاب الشرقي قرية سيدي عقبة، وهي تبعد عن بسكرة بـ18 كيلو ميطر [كذا]، تجتاز على عربة أوتوموبيل، نخيلها باسقة وأثمارها مختلفة، بها جامع وضريح المسماة عليه سيدي عقبة بن نافع الصحابي الشهير، وهو جامع أثريّ جليل يَرِدُ إليه السوّاحون من كل [فجّ] عميق.."[5]**

وعلى العموم، فإن رحلات إسماعيل مامي تسير على خطين متوازيين، فهو لا يبرح الخط الصحافي الذي يلازمه في حياته كلها، ومن ذلك الرحلات، حينها يصبح هذا النص مفعما بالوظيفة الصحفية التقريرية، والاستقصاء والتحليل والمقارنات، واقتراح البدائل..

4. 2. بنية الخطاب الرحلي

---

[1]- جريدة النجاح، السنة السابعة، العدد: 438 ، الأحد 29 شوال 1345 الموافق 1/ 5/ 1927

[2]- حظيرة.

[3]- جريدة النجاح العدد 145، الجمعة 2 جمادى الثانية 1342 الموافق لـ 8 فيفري 1924.

[4]- جريدة النجاح، السنة الثامنة، العدد 571، الأربعاء 28 رمضان 1346 الموافق لـ 21 مارس 1928.

[5]-جريدة النجاح، العدد 181، الجمعة 7 نوفمبر 1924. الموافق لـ 8 ربيع الثاني 1343 هـ

الخطاب الرحلي عند اسماعيل مامي يتخذ أوجها بأبعاد مختلفة، وذات توجه واحد، وهو خطابه على سائر ما كتبه عبر نصوصه الصحافية المختلفة، ومنها النص الرحلي...

4. 2. 1. البعد الديني

يمثل البعد الديني في أثر مامي نسقا عاما شأنه في ذلك شأن كافة المجتمع الجزائري إبان تلك الحقبة، حتى عدّ مجالا اجتماعيا خالصا، بما أن الجزائري كان يتمسّك بالدين الإسلامي في أبعد حدوده كظاهرة فريدة عندما كثرت عليه النوائب وضاقت عليه فسحة الأمل والحرية، حينها شعر بالغربة التي مارسها ضده عدوّ ينتمي إلى دين وعقيدة مختلفة، بل مناهِضة ومصارعة تاريخيا للدين الاسلامي، فما كان من المجتمع الجزائري إلا أن يركن تحت جناح ديني هروبا إلى الله حتى يتبيّن في اختلافه، ويكون صاحب رسالة تختلف جذريا على المكون الاستعماري، وهذه الصفة العقدية تمثل القوة الصلبة التي لا تزعزعها رياح المستعمر بالرغم مما حملته معها من مغريات.. وقد نكتشف أن الجزائري تعرض لأبشع أنواع التعذيب المادي والمعنوي، جاع وتعرى، ومرض وقاسى الجهل وتفشت فيه الأمراض، إلا أنه في الأخير بقي صلبا انطلاقا من قاعدة متينة تمسك بها، وهي الدين الاسلامي.. وهذا مبرر كبير على صلابة الجزائري وصبره وصموده مدة طويلة، حتى انكسرت تلك القوة العاتية..

ومن هنا تمكّن الجانب الديني في الفرد الجزائري كبعد اجتماعي حافظ من خلاله على خوفه من الله ولو على حساب جهله بقوانين التشريع الإسلامي السامية، وظهر متواريا خلف خوفه من ربه تجاه كل خطوة يقدم عليها، حتى نجده أحيانا مبتدعا ولكنه خلف غطاء ديني، ممالئا لكنه خلف غطاء ديني، وهكذا ظهر الجزائري مشبعا دينيا محافظا في كل أحواله.. وفي هذا الشأن يكون إسماعيل مامي واحدا من هذا الكلّ. وهي الصورة الجلية التي نجدها في خطابه الرحلي حيث يطغى عليه البعد الديني، وهو عارف مثقف، تبرز تعليقاته ونقده محليا ودوليا يقف موقفا انطلاقا من خلفيات دينية.

وانطلاقا من رحلاته –هذه– نجد مامي في هذا الشأن يقف من الاسلام موقفا محددا لخطابه بمعالم دينية سواء أكان ذلك على المستوى المادي أو المعنوي.. ومما نجده في ذلك أنه يمارس هذا الجانب على مستوى المكان وعلى مستوى الانسان..

أما من ناحية المكان فنجده كلما انتقل في سرد خطواته أثناء السفر إلا ووجدناه يتخطاها انطلاقا من معالم ومراكز دينية، فحين يقصد المغرب يقف عند أول مدينة وهي وجده، فيقول:"**فهذه مساجد (وجدة) التي جئتها ألفيتها عامرة بالمصلين الذاكرين القانتين**"[1]في مكان آخر، "**فما كانت الساعة الواحدة غداة ركوبنا تدقّ حتى حيتنا صوامع جوامع طرابلس الشامخة**"[2] ولعله في كل ما حل به في رحلاته داخليا وخارجيا إلا وذكر المساجد، بل نجده إذا تعذر عن ذكر المسجد في بلاد كأروبا يذكر ما يقابلها في هذا الشأن، فيذكر الكنائس كما هو الشأن في رحلته التي زار فيها مالطة "**فدخلنا بضع كنائس ما كنا لنعرف مثلها عندنا. إحكام بناء، إتقان نقش وتزليج، إبداع في التماثيل والصور النادرة المثال**"[3]وقد كانت الكنيسة تشكل المقابل الموضوعي للمسجد الذي تغيب بفعل اختلاف المجتمع..

---

[1]– جريدة النجاح، العدد 1165، السنة الحادية عشر، الأربعاء 23 محرم 1350 الموافق لـ 10 جواب 1931.

[2]– جريدة النجاح، السنة السابعة، العدد: 442 – الأربعاء 9 ذو القعدة 1345 الموافق 11 ماي 1927.

[3]– جريدة النجاح، السنة السابعة، العدد: 438 ، الأحد 29 شوال 1345 الموافق 1/ 5/ 1927

ولا يقف مامي عند حدود المكان كحدث هندسي يليق بالسياحة والاعجاب على ما يمثله في صورته، وإنما لما يتضمنه في روحه كمكان للعبادة، له وظيفة روحية فعندما يتحدث عن مريدي المساجد ممن قابلهم على سبيل المثال في وجدة، يقول:"**وبمجرد نظرة منك إليهم حكمتَ عليهم بأنهم على جانب كبير من فعل المبرّات لأن من تمسّك بدينه خليق بأن يعمل بمقتضى أوامره ونواهيه**"[1]فمامي يفسر ظاهرة الدين كجانب إيجابي، يجعل صاحبه قدوة ومثالا في سلوكه وأخلاقه وكل نشاطاته، وهذا ما تمنحه دور العبادة لروادها.. كما أنه يجلي أحيانا الخطب والخطباء، ويتفاعل في خطابه مع مضمون تلك الخطب وتأثيراتها، وانعكاساتها الايجابية، وما يجب أن تكون عليه في سبيل الصالح العام، نجد ذلك مثلا في رحلته إلى فاس.

ولا يكتفي مامي في خضم حديثه في بعده الديني على ما يقف عليه من إيجابيات، بل الفعل النقدي نجده في هذا الشأن ماثلا، فهو يقف موقفا يحدوه التنويه والاطمئنان حين يكون أمر الدين في دوره المنوط.. في حين يتّخذ موقفا تجاه ما يكون سلبيا في هذا الشأن، خاصة وأن الجزائر عرفت انحرافات في مجتمعها، ولما كان مامي من المثقفين في هذا الشأن، فقد أبرز عيوبالطوائف أو جمل من المنكرات. نجده مثلا يحارب الضلالات في كل بلاد حل بها خاصة تلك التي دوّنها في رحلته إلى وهران:"**بدع سكان وهران وما أشنعَها بدَعًا لا تزال في رسوخ وتزايد مستمرّ. يموت الميّت فيُشيّعه للمقبرةِ الطُّلْبَةُ صائحين ببُرْدَةالبُصَيري، وكثيرا ما تراهم يلتفِتون يمينا وشمالا مُعجبين بألحانهم وأصواتهم المزعجة، قبّحهم الله وأخلى منهم الأرض. كل ذلك لتسمعهم النّسوة اللائي هُنّ أيضا في صياح لا يقلّ عن صياحهم قبحًا وبشاعةً. أما النّسوة فإنهنّ يخرجن سافرات نادِبات مخضّبات الوجوه بالسواد والطين والنجاسة، ومنهنّ من تضع على رأسها (بدون) قاز[2] فارغ تضربه بأيديها ومنهُن من ترفع نعلا تضرب فَرْدَة[3] بأختها، ومنهن ومنهن، وكلهن صائحات بما نصّه:....**

بُوهْ بُوهْ! يا وِيلِي مَوْتُوه!

بُوهْ بُوهْ! يا وِيلِي مَوْتُوه!

والطُّلْبة أجلّهم الله صائحون بما نصه:

(مَولاي) (صالي) (وسالم) (دائما أبدا) !

وَاعْلَى حَابِيبُوكَ[4] خَيْرِي الخَلْق كلّهم![5]

وقد أقحمنا هذا المثال الذي يندرج في البعد النقدي الذي سيتم التطرق له، ولكننا أدرجناه هنا للدلالة على ما لمامي من اهتمام بالشأن الديني، والحرص على معالجة قضاياه الشاذة.

كما أنه في هذا الشأن ينتقد بعض الزوايا التي أخلّت بدورها وتسربت إليها بدع لم تكن من الدين بأي سبيل، فعندما يتحدث عن الزاوية العليوية بمستغانم، يقول: "..**ولا ذكر (الله) والاهتزاز معه كمن يتخبطه الشيطان من المسّ ولا سبح الواحدة منها كالجوزة، على أن من يذكر الله لا تلزمه سبحة كذلك، فمخالفة الأمة بالسبح**

---

[1]– جريدة النجاح، العدد 1165، السنة الحادية عشر، الأربعاء 23 محرم 1350 الموافق لـ 10 جواب 1931.

[2]– دارجة جزائرية تعني دلو الغاز.

[3]– إحدى زوجي النعل.

[4]– يختل التركيب النحوي في الاستعمالات الدارجة في بعض الحالات .

[5]– جريدة النجاح، السنة الثامنة، العدد 588، الأحد 17 ذو القعدة 1346 الموافق لـ 6 ماي 1928.

لماذا؟ والشيخ لم يأمر بذلك حتى إذا كانت له سبحة هو كتلك فلا يلزم أن يكون الفقراءكلهم مشايخا بالسبح"[1]وهذا منتهى ما كان رجال الاصلاح الديني يحاربونه..

4. 2. 2. البعدالتاريخي

البعد التاريخي حاضر بقوة في خطاب اسماعيل مامي، فهو يغلب على نصوصه كلها، إذ يؤرخ للحظة التي يقف فيها على مكان ذي تاريخ، فيدشنه، بقراءة تاريخية، وهذا البعد الذي يطرأ على خطاب مامي يمكث في صميم توجه الرحالة الذي نراه أحيانا يستطرد كثيرا إلى حدود الملل، ولعل القارئ لرحلته إلى مصر المسماة بـ "سياحة استطلاعية" نجده يغيب في حلقات كثيرة من نصه، خاصة عندما يتحدث عن تاريخ مصر القديمة حينها يعود إلى كتاب المرآة، وينسحب هو تاركا المجال لصفحات طويلة[2] تتكلم بدله.ويتكرر هذا أيضا في وصف السودان وعن تاريخ الأزهر، وهي الرحلة الوحيدة التي نجد فيها هذا الاستطراد الممل، أو في رحلته إلى المغرب بعنوان "جولتي بالغرب الجزائري والمغرب" التي نجده أقل حدة من رحلته السالفة.. "**قال صاحب ماضي المغرب وحاضره: "كلية القرويين هي أقدم كلية دينية أسّست بالشمال الإفريقي عموما، وسميت كذلك نسبة إلى مؤسستها السيّدة فاطمة أم البنين ابنة محمد الفهري القيرواني القادمة على فاس في وفد القيروان، وأول ما أخذت بالشروع في بنائها وحفر أساساتها يوم السبت فاتح رمضان المعظم سنة خمس وأربعين ومائتين في دولة الأمير يحيى الإدريسي، ..."**.[3]

وفيما عدا ذلك نجده يستحضر ثقافته في كل شيء ويعتمد على المعلومات الراسخة في ذاكرته، كقوله:"**ثم خرجنا للتفسّح بعاصمة الشمال فاس التي أسّسها مولاي إدريس الأصغر سنة 192 هـ وبها ضريحه المهاب"**[4] أو قوله في وجدة، حين يعرف بها: "**تأسست مدينة (وجدة) عام 994 [م] من قبل زيري بن عطيّة حيث جعلها عاصمة مقاطعته الواسعة، ثم حكمها الموحّد الذي أقام لها سورا سنة 1206 [م]، ثم أبي يعقوب صاحب (فاس) سنة 1271 [م] ثم أخلفه ابنه أبو يوسف عام 1295 [م] فأصلح المدينة وأقام فيها قصرا أنيقا وحمّاما ومسجدا، وبعدئذ دخلت المدينة ضمن ملك الشرفاء السّعديين والعلويين وحصلت هذه الاحتلالات من عام 1554 إلى عام 1795، ومن ثمة استولى عليها مولاي إسماعيل.**[5]....

ويعد اهتمام مامي بالآثار التاريخية وذكرها من باب الشعور الذي ينتابه حينما يقف أمام الأماكن ذات القداسة الدينية أو التاريخية، وهو وعي إنساني يتميز بالحضور الحضاري في ذاته، وهذا شعور أي مثقف، وخاصة الرحالة الذي يتجسد له المكان كظاهرة نموذجية كمعالم لتركيبه السردي، فكلما عظم شأن المكان كلما تسلل موغلا في التعبير عنه وتحسيس القارئ بقوة التأثير. لذلك نجد مامي في هذا الباب موجزا أحيانا، وأحيانا أخرى مطنبا إلى حد الاسهاب. ومما نجده لديه، هذا الاحتفاء المكاني خلال رحلته إلى مالطةقوله: "**في مالطة آثار عجيبة وأعظمها البلاد الحجرية الخارقة تحت المدينة تسع كيلو ميطر، كلها قبور وبيوت ومطاحن وبراحات. كان يسكنها**

---

[1]- جريدة النجاح، العدد 132، السنة الرابعة، الجمعة 30 ربيع الأول 1342، 9 نوفمبر 1923.

[2]- انظر مثلا، جمهرة الرحلات الجزائرية ج7، صص من 48 إلى 56.

[3]- جريدة النجاح العدد 145، الجمعة 2 جمادى الثانية 1342 الموافق لـ 8 فيفري 1924.

[4]- جريدة النجاح العدد 145، الجمعة 2 جمادى الثانية 1342 الموافق لـ 8 فيفري 1924.

[5]- جريدة النجاح، العدد 1152، السنة الحادية عشر، الأحد 22 ذو الحجة 1349 الموافق لـ 10 ماي 1931.

المالطيون في غابر الأزمان توقّيا من العدو، أو عادة ذلك ما يحقّقه المؤرخون، وهناك جُبّ اكتشف منذ خمسة وعشرين سنة فيه آثار نحت وثغور، يقول أساتذة التاريخ بإيطاليا وفرنسا وإنكلترا أنها كانت معابد وغيرها، وهناك آثار أخرى تشبه آثار تمقاد عندنا إلا أن تمقاد أجمل منها بكثير.[1]

وليس اهتمامه بالتاريخ، اهتماما بالمكان فحسب، بل يظفر اهتمامه بالأنساب أيضا، وبالأشخاص بشكل كبير، فهو يتماشى في خطاباته مستحضرا كل أدواته النافذة في فراغات وبؤر السياق العام للرحلة ببعدها الثقافي تجاه القارئ، وملازمة للمحيط الذي يسرد من خلاله، كما أن استشهاداته تنم على ثقافته، مثل قوله في نسب إحدى القبائل:"**نسب أولاد سيدي ناجي كما ذكره المؤرخون عن الشيخ عيسى بن سلامة في كتاب الأنساب ينتهي إلى ثالث الخلفاء الراشدين عثمان بن عفان، ومما ذكره صاحب الدر والعقيان في بيان شرف ملوك بني زيان أن نسب سيدي المبارك بن ناجي ينتهي إلى أمية بن عبد شمس، وهذا التعريف وُجد في تاريخ الوزير المعروف بتونس، ونشأ أوائلهم أولا في الشام ثم الأندلس ثم إفريقا**"[2]

4. 2. 3. البعدالأخلاقي

لا يختلف البعد الأخلاقي بل لا يكاد ينفصل عن البعد الديني، ولعل التوجه الديني الذي يتملّك الرحالة هو الذي ينظر من خلال زاويته في الأمور الأخلاقية، فهو يعالج في مادته الأخلاقية شأن المرأة وسفورها، ومنكرات الأفعال خاصة ما ارتبط منها بقضيةالخمر، وهذان الأمران يتدخل فيهما مامي بشكل كبير.

أما عن النساء، فهو لا يرى في سفور المرأة شيئا ذا تقدّم، إلا ما كان استثناء في رحلته إلى مصر، والتي دار فيها الحديث مع هدى الشعراوي المعروفة بدعوتها إلى تحرّر المرأة، نجد أن مامي قد رضخ لكثير من الأمور، ولعل تفسير ذلك يعود إلى ما أبدته هذه السيّدة من حجة ولطف، إضافة إلى الشهرة التي كانت تحتلها في مجتمعها، ما جعل مامي لا يسيطر على نفسه، خاصة وأن كتابة رحلته كانت آنية، وكان في ذلك راضخا لما تدّعيه الشعراوي من تحرّر للمرأة.. أما فيما عدا ذلك، فجد أن مامي تجاهر بدعوته الصريحة ضد سفور المرأة، ومحاربة تصرفاتها كلما انحرفت إلى الشذوذ قليلا أو كثيرا.... "**وفي الأصنام توجد بنات كثيرات مهمَلات كما بسطيف (يتقرصن) عند اليهود والنصارى، ويخرجْن سافرات في لباس افرنجي عربي، أعني ممتزجًا، لباس أشبه شيء بقصّة الغراب والحمَام يتكلّمن بالعربية تهكّما وبالفرنسوية تأنّقا، فلا هنّ بالعربيات ولا بالإفرنجيات، يا للضحك والبكاء أنفع منه للجزائري على بنات وطنه**"[3]ويذهب مامي في ذلك بعيدا، حينما يتقصى في الموضوع، وهو ديدنه، فلا يبرح قضية من هذا الشأن إلا ويبحث في أسبابها وعللها، ".. **ولكن الوازع الكبير حسبما استفدنا من أحد الأصناميين هو حب التفرنج لا العجز على المعيشة وحب الدرهم كما بغير الأصنام، والمصيبة في الحقيقة أعظم، لأن المضطر أخفّ من غيره، هذا الداء الذي أصاب إخواننا الأصناميين قد لا يضرب له المتدبّر حسابًا ولكن عندما تمرّ عليه عويمات[4] تظهر عيوبه السوداء..**"[1]

---

[1]– جريدة النجاح، السنة السابعة، العدد: 438 ، الأحد 29 شوال 1345 الموافق 1/ 5/ 1927

[2]–جريدة النجاح، العدد 182، الجمعة 14 نوفمبر 1924. الموافق لـ 15 ربيع الثاني 1343 هـ

[3]– جريدة النجاح، العدد 132، السنة الرابعة، الجمعة 30 ربيع الأول 1342، 9 نوفمبر 1923.

[4]– أعوام قلائل.

ولعل الأسلوب الذي يطغى على تعبير مامي في شأن المتبرّجات، أسلوب يسوده الانفعال والهجوم، بالإضافة إلى تحميل ذلك للمجتمع ككل ويحذر من عواقبه.. مامي يعتبر كل ما يتعلق بتبرج المرأة أمرا غير مقبول في المجتمع الجزائري، وفي ذلك يشهر حدة في وجه هذه المظاهر بأسلوب صريح وجارح، مثل قوله: **"كتبرّج النّسوة في الأسواق والطرقات بغير حاجة، وبوقاحة نهائية ولا خجل، فالواجب أن تقوم أيضا دعاية من رجال الغيرة هناك ضد هؤلاء المتهتّكات"**[2] وفي هذا الشأن لغة مامي تفصح عن قصب شديد اللهجة، يبِين عن عدم رضى والدعوة إلى الحد من هذه السلوكات والتوجهات.. بل يدعو في ذلك أعلى السلطات للحد من هذه الظاهرة: **"وأن يسعى النواب لدى الحكومة في الضّغط على النّسوة بالوسائل المعروفة الفعّالة. فإنك قلما تجلس بمكان ولا يمرّ عليك به جيش يتلوه آخر من المتبرّجات المترجّلات اللائي قطعهن من الأوباش ولسن من نساء الفضلاء والأعيان، ولكن على كل حال كما قدّمنا دائما المعرّة تلحق الجميع"**[3]

وثاني الأمور التي تتعلق بالبعد الأخلاقي قضية الخمر التي أسرف فيها من أسرف في المجتمع الجزائري من حيث كان يبدو محافظا، ومامي من الداعين إلى محاربة هذه الآفة، وهو في ذلك يكون قد رصد حالات من كامل القطر، لأن رحلاته الداخلية كانت بمثابة نقل انطباعات عن ما يحوم فيه المجتمع الجزائري ما له وما عليه من أخلاق ومظاهر اجتماعية وثقافية، أما رحلاته الخارجية فلم يكن يسجل هذه المواضيع، مما يدل على أن بعده كان يميل إلى الجانب الإصلاحي في عمقه، وقد كان يرصد من أمكنة مختلفة من القطر الجزائري، ويشخص الداء، كقوله عن قسنطينة: "**يسري داء الخمر بين أفرد القسنطينيين بالأعراس غير أنه لا يتمكّن منهم إلاّ إذا كانوا من ذوي المَحَال المعدّة للمخالطة ففي مسقط رأسي ما يناهز الستّين بيتا، وهاته البيوت عبارة على محلٍّ يكتريه أفراد للاجتماع والتسلّي بالرنقيلة (شرب الكيف) والخمر وهو سابقا أقل تناولا منها، وهي اليوم أقلّ منه وغالب أصحاب المحال سابقا كبار سنّ، وأما اليوم فقد أصبح الولد لا يبلغ الحلم إلا وهو قرين المحل المذكور إلا أبناء المكاتب**[4] **والمدارس فإنهم سالمون من هذا المرض"**[5]وقد تميز خطاب مامي في حديثه عن الخمر من منطلق وازعه الديني، حيث كان يرى أن مصيبة ذلك تعود إلى جوانب روحية لها سلبياتها وفق ما قرره الشرع الحكيم، فهو يضعها في ميزان الشرع، وما ينجر عنها من عواقب: **"لو كنا نعقل لعلمنا أن نتيجة تعاطي الخمور هو الجنون وإيقاع العداوة والبغضاء وترك ذكر الله والغفلة عن الصلاة والوقوع في الفحشاء لما يكثر في الشارب من [ضعف] الإيمان التي ربما أدّت به إلى تحريم زوجه زيادة عن الأمراض التي تعتريه ويرثها منه أبناؤه"**[6]

4. 2. 4. البعدالتربوي

يحتل البعد التربوي أيضا من خطاب مامي مكانة هامة إذ لا يفتأ يذكر في كل زياراته داخل الوطن وخارجه، الجانب التعليمي ومراكز التعليم، ويقيّم المستوى البيداغوجي التي تقوم عليه المؤسسات في تفاصيل تمكّن القارئ من معرفة خصوصية التعليم ومنشآته، ويرصد حواراته مع مديري التعليم والمعلمين.. كما أنه يركز على التعليم الفرنسي

---

[1]- جريدة النجاح، العدد 132، السنة الرابعة، الجمعة 30 ربيع الأول 1342، 9 نوفمبر 1923.

[2]- جريدة النجاح، السنة الثامنة، العدد 588، الأحد 17 ذو القعدة 1346 الموافق لـ 6 ماي 1928.

[3]- جريدة النجاح، السنة الثامنة، العدد 588، الأحد 17 ذو القعدة 1346 الموافق لـ 6 ماي 1928.

[4]- يقصد الكتاب (محلات تعليم القرآن).

[5]- جريدة النجاح، العدد 140، السنة الرابعة، الجمعة 27 جمادى الأولى 1342، 4 جانفي 1924.

[6]- جريدة النجاح العدد 150، الجمعة 8 شعبان 1342 الموافق لـ 14 مارس 1924.

كونه يدخل في التكوين المتطوّر من ناحية ومن ناحية، يعد مامي من الشخصيات التي لا تعترض تواجد الفرنسيين بالجزائر، وإنما من المؤيدين لذلك، فنجده يبارك في مختلف تصريحاته كل ما تقوم به السلطات الفرسية من مشاريع داخل الجزائر..

ولعل مامي من المدركين للشأن التربوي وما يمكنه أن ينجر عنه من مخلفات سلبية، ويدرك مدى خطورة أن يبتعد المجتمع عن مؤسسات التعليم:"**ولسوء تربيتنا الأولى تسلّطت على أفكارنا الأوهام والخرافات وانتشرت فينا البِدَع التي ما أنزل الله بها من سلطان**"[1]وهو يرى أن الأمم ترتقي بالعلم، فهو المقياس الحقيقي للتطور"**إذا أراد الإنسان أن يعرف قيمة شعب عمَد قبل كل شيء إلى حالته العلمية، فإن كانت له رغبة في العلم ومدارس نظامية حكم على البداهة برقيّه.**[2]في حين يرى أن الجمود قد ساد على التعليم وصار لا يمثل طبيعته في هذا العصر، وأبرز من يعتبر حارسه هم أولئك الذي حطموه تارة باسم الدين، وأخرى باسم التقاليد، خاصة وأن المجتمع الجزائري كان مجتمعا محافظا، لا يقبل في مساومته في دينه، لذلك كان –المجتمع الجزائري- يتوجس من كل ما من شأنه أن يقوض مبادئه الاسلامية، وكان في ذلك يتقي كل أمر يرى فيه أنه بإمكانه ان يمس شأنه الديني، فكان غالبية الشعب الجزائري يرفض رفضا قاطعاما جاءت به فرنسا من مناهج تعليمية وتربوية، لسابق معرفتهم بنوايا الفرنسيين، لذلك كان مامي مستاءً من هذا الجانب، إضافة إلى ما كان له من ميل تجاه الفرنسيين الذين لم يكن يرى أنهم عدوًّا للجزائريين، ومنه أراد أن يطمإن في خطابه عن مصير الأمة التربوي والتعليمي: ".. **أمام الحياة العلمية التي لا تشوبها شبهة تمسّ الدين أو القرآن العظيم، هذا مع إقناعهم بأن التعليم الابتدائي لا يضرّ بتعليم القرآن بل هو المعين للمعلّم القاصر الذي لا يعرف من القرآن إلا سرده، ولكن أين ينفذ أغراض ودسائس الجامدين الذين لا يريدون بنصائحهم لآباء التلامذة محبّة أو شفقة عليهم أو غيرة على القرآن. كلاَّ وألف كلاَّ بل ما غرضهم إلا خدمة مصالحهم المعَاشية لأنهم يخشون أن يتعلّم الصبيّ علوما صحيحة فيعْدل عن التعليم لدى معلّمه القرآني وهو أمر بعيد لأن تعليم القرآن أمر وتعليم العلوم أمر ثاني لا دخل له مع الأول**"[3]كما كان ينتقد بشدة التعليم التقليدي الذي كان سائدا عند الأهالي، ولا يرى فيه خيرا: "**إذا قلنا المعارف لا نعني بها إلا التعليم النظامي المفيد أما التعليم البالي العتيق فإن وجوده وعدمه على حدّ السوا، وما التعليم عندنا إلا تلقين القرآن الكريم والكتابة العربية للأطفال**"[4]ووراء هذا الهجوم على التعليم التقليدي، زاوية نظر، كان يرى فيها الخير حسبه، وهي التعليم الفرنسي، انطلاقا من استدراجه على العلم في حد ذاته، حتى وإن كان عربيا، فهو يبرئ فرنسا من التحامل على الجزائريين، وأنها لا تريد لهم إلا الخير، بل يهمها الأمر إذا ما جدّ الجزائري وحقق نتائج علمية مرجوة، فحين كان يخاطب أهالي سوف، اقترح عليهم أن يزاولوا تعلمهم بتونس، وأن فرنسا لا تقف سدا في وجوههم بل هذا ما كانت فرنسا تحبذه:"**وفرنسا دولة العلم وحبيبته لا يهمها أن يتعّلم الطالب الجزائري بالزيتونة أو الأزهر، لأن تونس ابنتها، ومصر حبيبتها، كما أنها لا يضرّها تعلّمه في أي بلد كان، وكليّة كانت،**

---

[1]- جريدة النجاح العدد 150، الجمعة 8 شعبان 1342 الموافق لـ 14 مارس 1924.

[2]- جريدة النجاح العدد 148، الجمعة 24 جمادى الثانية 1342 الموافق لـ 29 فيفري 1924.

[3]- جريدة النجاح العدد 148، الجمعة 24 جمادى الثانية 1342 الموافق لـ 29 فيفري 1924.

[4]- جريدة النجاح، العدد 1159، السنة الحادية عشر، الأربعاء 9 محرم 1350 الموافق لـ 27 ماي 1931.

إنما يُعجبها من الطالب إذا رجع حسّن سيرته، وتديّنه، واجتهاده، في تثقيف الأذهان بالدروس العلمية وبالخطابة الجُمَعية"[1]

ثم بعد هذا الاستدراج، ينتقل بالدعوة إلى التعليم الفرنسي، وما كانت تسعى إليه جاهدة في سبيل الأهالي، وأنها تمنحهم التعليم على ثلاثة مستويات، ولما كانت أهالي الوادي لا يستجيبون لمجهود الدعوة الفرنسية في هذا الشأن قرر بقوله: "**وإنه ليجب عليّ أن ألفت نظره ونظر إدارة العلوم إلى التأسّف العظيم والعجب الكبير من تقهقر التعليم الفرنسوي بوطن الوادي منذ ابتداء الحرب الكبرى إلى اليوم، حيث لم تنجب مكاتب الوادي من خمسة أنفار في مكاتب ثلاثة، وهذا العدد وإن كان لا يُخجل (م. لوكار) مراقب المكاتب الفرنسوية بعمالة قسنطينة، فإنه قطعا إذا ذُكر يُخجل إدارة العلوم التي تحوي رجالا غيورين على تعليم الأهالي وترقيَتهم، لا فرق عندها بين المسلم وغيره والتلّي والصحراوي**"[2]ومرد ذلك في نظره إلى أسباب كثيرة منها أنه يقرّ بأنها "**أمّة عمياء لا تدرك حلاوة التعليم الراقي**"[3]

ولم يكن يقتصر حديث مامي عن التعليم على رحلاته الداخلية، بل استفحل الحديث عنها في مختلف المناسبات حتى خارج الوطن، وخاصة بالمغرب الذي أفرد له الكثير من المناسبات للغوص في هذا المجال، كما أنه أكد أيضا على التعليم الفرنسي. وأن الواجب حتى على الحرفيين تعلم الفرنسية لمساعدتهم على تطوير فنيات عملهم.. حتى وإن تبصرنا أن الحرفي المغربي لا يحتاج إلى أية لغة في ذلك، حتى العربية بلْه الفرنسية. كما أنه أشاد بما تحويه فاس من مدارس تعليمية وطرق التعليم، ومنها كذلك تنويهه الكبير على ما وجده بمدينة وجدة من تطور من خلال تعدد رحلاته إليها.

...

4. 2. 5. البعدالصحافي

يعد مامي صحافيا محترفا في الأساس، بدأ حياته المهنية صحافيا وختماها بجريدة النجاح على طول عمرها محررا بها.. ومن أبرز السمات التي تعتري حياته في الكتابة البصمة الصحافية، ولعل هذه الصفة واكبت سيرته الانشائية وهو يكتب نصوصه الرحلية، إذ لا نعدو أن نجده مقررا عن رحلاته وكأنه ينقل ربورتاجا مكلفا به من قبل جريدته..

فهو يحيل في بعض نصوصه على أنه موظف بجريدة ومكلف من طرفها للقيام بجولاته الاستطلاعية، يقول مثلا في إحدى رحلاته:"**مكّنتني إدارة هاته الجريدةمن زيارة وادي سوف مرتين متتابعتين في عامي 24 و25، ثم في سنة 26 و27. تركت الفسحة لأخي السيد عبد الحفيظ الهاشمي، وفي هذه السنة يمّمت الصحراء القسنطينية بعد أن تغيبت عنها العامين المذكورين**"[4]وقد تمثل هذا البعد عند مامي في صفة الإخبار التي يحملها خطابه، مما يدل على أن سمته الخطابية تحتمل البعد الصحفي أكثر من غيره من الخطابات، فقد كان مقررا في كل رحلاته، التي نشرها في أصلها بجريدته –النجاح–، ومن بين ذلك قوله مقررا: "**وقد أُخْبرت أن المجلس العمّالي كان**

---

[1]– جريدة النجاح، السنة الثامنة، العدد 549، الجمعة 4 شعبان 1346 الموافق لـ 27 جانفي 1928.

[2]– جريدة النجاح، السنة الثامنة، العدد 549، الجمعة 4 شعبان 1346 الموافق لـ 27 جانفي 1928.

[3]– جريدة النجاح، السنة الثامنة، العدد 549، الجمعة 4 شعبان 1346 الموافق لـ 27 جانفي 1928.

[4]– جريدة النجاح، السنة الثامنة، العدد 549، الجمعة 4 شعبان 1346 الموافق لـ 27 جانفي 1928.

منحها ثلاثين ألف فرنكا لخدمة قنطرة وطريق من النهج الكبير العمومي الممتدّ بينها وبين نِصفها الأعلى المكنّى (بوعلوفة)، فلم يتعين من تلك الدراهم شيء"[1] فلو جرّدنا هذا المقطع من نصّه العام، لما تحققت فيه سمة الرحلة.

وقد كانت رحلاته الداخليةتقريرية بامتياز، عن أحوال البلاد وما كان ينطلي عليها من أحداث سياسية واقتصادية واجتماعية، بل حتى عن الظواهر الطبيعية، التي ينقلنا في كثير من المحطات على أنها تغطية لأحداث بعينها، كما نجده في قوله: **"وفي خلال الكارثة تبرّع عدد وافر من الفرنسويين والمسلمين تبرّعات غاثت الحكومة بها المساكين الذين أصبحوا لا لباس ولا غطاء ولا وطاء، ولا ما يسدّون به الرمق، ومنهم الماجد الشيخ عبد القادر ابن تكوك رئيس الزاوية السنوسية، وعند اتّصال جناب المير من عقيلة الوالي العام م. فيوليت بالكسوة، ناولها حالاً للمرأة وعزّزها بالنّفَقة اللازمة"**[2]

ومثل ذلك نجده في مناسبة مختلفة، يقوم –مثلا– بتغطية الانتخابات، مما يدل على أنه صحافي يمارس مهنته متتبعا لأهم الأحداث فيقرر بشأنها موضوعه، ومن ميزته أنه يدرج ذلك في نمطية تتعلق بالسفر، كما هو الشأن في هذا المقطع: **"هذه المرّة الثانية التي أزور فيها عاصمة الايالة الثالثة مدينة وهران بعد الانتخابات البلدية الأخيرة ولم ألفِ نوابها البلديين كعادتهم نائمين خاملين عن القيام بما تطالبهم به الأمة من الحقوق والواجبات بل تحرّكوا نوعا ما.."**[3]..

وأما عن زيارته الخارجية، فهو ينقل حديثه عنها لمقرات الصحف التي تماثله في طبيعة العمل، وهذا شأن كل إنساء يهتم بما يشغله في الحياة، فهو يحاول اكتساب معارف جديدة، كما أن هذه المماثلة تستهويه من جانب التقارب في الأفكار.. ومما نجده في أحاديث مامي الكثيرة عن زياراته لمقرات الجرائد، مثلا في المغرب: **"وبها إدارة رصيفتنا (السعادة) الغراء، تلك الجريدة السياسية الأدبية الاقتصادية الفلاحية التي تصدر ثلاث مرات في الأسبوع، تلك الجريدة التي زرت إدارتها الجديدة في ملتقى شارع هالة واجتمعنا بمديرها السيّد (ماركو)"**[4]وأما بطرابلس فينقل قائلا: **"نزلنا للبلدة، وأول من اجتمعنا به رصيف رابطتنا به مهنة الصحافة، وهو الأديب البارع الكاتب النقّادة الأستاذ محمود نديم ابن موسى، مدير ومحرّر رصيفتنا جريدة (الرقيب) الغرّاء"**[5]

ولا شك، أن من أبجديات الرحلة، أن الرحالة صريح في انتمائه الثقافي، والمهني، لذلك نجده يحمل نصه من القضايا التي تدخل في صميم توجهه في الحياة، وهو نزوع إلى الفضول شأنه في ذلك شأن أي إنسان يطمح إلى إثبات ذاته من خلال الاسهام في مجاله.. ولم يكن مامي في رحلاته الداخلية أو العربية، إلا حديثه عن جريدة أو جريدتين، ولكنه يتحدث عن زيارته لها، وعن محاوراته مع محرريها وصحافييها، بينما في البلاد الغربية، ولما كان يتعذر عليه زيارتها، لم يتحقق له لإثراء موضوعه الخاص به كصحافي، فيلجأ إلى رصد عناوين الصحف وبعض ما تحمله من صفات، مثلما ينقله عن مالطة:**"وتوجد بمالطة ثمانية صحف؛ منها أربعة يومية وهي (مالطة) باللسان الانكليزي والطلياني و(الخيرات) باللسان الانكليزي والطلياني و(ماركيريوس) باللسان الطلياني و(كرونيكا) باللسان**

---

[1]– جريدة النجاح، السنة الثامنة، العدد 571، الأربعاء 28 رمضان 1346 الموافق لـ 21 مارس 1928.

[2]– جريدة النجاح، السنة الثامنة، العدد 581، الأربعاء 29 شوال 1346 الموافق لـ 18 أفريل 1928.

[3]– جريدة النجاح، السنة الثامنة، العدد 587، الجمعة 15 ذو القعدة 1346 الموافق لـ 4 ماي 1928.

[4]– جريدة النجاح العدد 158، الجمعة 5 شوال 1342 الموافق لـ 9 ماي 1924.

[5]– جريدة النجاح، السنة السابعة، العدد: 442 – الأربعاء 9 ذو القعدة 1345 الموافق 11 ماي 1927.

الإنكليزي، والأسبوعية (الحمار) باللسان المالطي هزلية مصوّرة و(مالطة أنتاعنا) باللسان المالطي و(الحد المالطي) باللسان المالطي و(الدكتور كشك) باللسان المالطي، وأكبرها جريدة (مالطة) وعمرها 44 سنة، إلا أن فن الطباعة لم يكن راقيا"[1]

ولعل من أبجديات الصحافي، أمور كثيرة لا تحصى، من بينها أن الصحافي إذا تحققت بين يديه فرصة اللقاء بالمشاهير شغلته، وجعلته يبادر إلى هذا اللقاء، وقد كان مامي في رحلاته الداخلية والخارجية يحقق مع شخصيات أعلام في مجالات مختلفة خاصة، العلماء والسياسيين والقضاة، ولما كان متواجدا في مصر، ظفر بلقاء السيدة المصرية المعروفة "هدى شعراوي" التي كانت آنذاك، تمثل شريحة المتحررات أو المطالبات بحقوق المرأة في صورتها الصادمة، وقد تحقق له معها لقاء، أثر فيه تأثيرا كبيرا، يقول في أول أمره اتجاهها "**سبحان الله هاته السيّدة تريد أن تأتينا بشريعة جديدة. وعزَمْت على زيارتها للمباحثة في هذا الشأن، ومن الغد زرتها في دارها، فاحتفلت بي احتفالا لا أستطيع أن أصفه، وأكرمتني إكراما زائدا**"[2]ولم يتوانى مامي في الكشف عن ثقافته الصحافية التي صار فيها وظيفيا، فكان مما ينقله عبارة عن سؤال وجواب أو محاورة، دارت بينه كصحافي وبينها كشخصية مؤثرة في مجتمعها المدني، ومن بين ما دار بينهما من أحاديث، هذا مقتطف منه:"**حكيت لها عن داعي زيارتي مع شوقي الكبير لمعرفتها بما أني قرأت لها عدّة خطب ومقالات اجتماعية عن المرأة،–فتبسّمت وقالت، إن المرأة المسلمة مع كل أسف محرومة من حقوقها الطبيعية والحال أن الشارع خوّلها من الحقوق ما لو تحفظت به إلى الآن لما وصلت إلى الحضيض الأسفل، ثم سألتها عن مسألة عصمة المرأة فقالت: إن مسألة الطلاق عندنا مسألة فاسدة، فقد تكون المرأة في كسر عينها فيأتيها الزوج ويقول لها أنا حلفت بالطلاق وحنثت إذًا فأنت طالق، وقد يطلقها لسبب تافه وقد يمثل بها وبنفس ..وإذا طلبت سراحها يقول لها ناوليني كذا من الجنيهات فأطلقك إلى آخر ما هنالك من المعاملات القاسية الفاسدة، ثم قالت لي هل هذه عندكم بالجزائر؟ فقلت لها إن مسألة الطلاق عندنا قليلة جدًّا في العائلات الشريفة، والعائلات الوسطى موجودة إلا أنها ليست بالصورة التي حكى جنابك، بل لا بد في الطلاق من مراجعة الحاكم وهو فضيلة (القاضي) الذي ينتصف للمرأة من الرجل كيفما كانت منزلة ذلك الرجل**"[3].وقد نقل مامي حديثه مع شعراوي حتى وصل إلى القول "**بالجملة فقد أعطيتها كل الحقّ فيما أفادتني به، غير أني طلبت منها أن تكون في مطالبها وأنظارها محترمة للشارع ومستندة عليه حتى يكون لمطالبها قبول واستحسان**"[4].

4. 2. 6. البعدالنقدي

البعد النقدي في خطاب مامي الرحلي مندفع تراه ينزاح من بين جملة الخطابات، فهو يشكل مادة حوية بالنسبة لنصوصه، وفي قراءتنا لهذه النصوصتتجلى لنا جملة من الانتقادات معظمها سيطر عليه الجانب الموضوعي

فقد كان مثقفا محيطا بمختلف الأمور التي لها علاقة بالإنسان وبالثقافة بمعناها الشامل، ففي الجانب الديني، كان ينتقد الطرقية وبشدة، فحين يتحدث عن الزاوية العليوية يقول "**أما الزاوية فإني أشاهد بها نهيقا كما بزاوية**

---

[1]– جريدة النجاح، السنة السابعة، العدد: 439 – الأربعاء 3 ذو القعدة 1345 الموافق 4 ماي 1927.

[2]– جريدة النجاح، جريدة إخبارية حرة، السنة الثامنة، العدد: 484 – الأحد 22 صفر 1346 الموافق 21 أوت 1927.

[3]– جريدة النجاح، جريدة إخبارية حرة، السنة الثامنة، العدد: 484 – الأحد 22 صفر 1346 الموافق 21 أوت 1927.

[4]– جريدة النجاح، جريدة إخبارية حرة، السنة الثامنة، العدد: 484 – الأحد 22 صفر 1346 الموافق 21 أوت 1927.

عنابة، ففي كل ليلة يسمع المارّ عليها عن بعد ميطرات شهيقا جاوز حدود الشرائع على اختلافها، ونهيق الحمير بأصنافها، مما يجعل النفوس تشمئز من الشيخ وطريقته من ذوي المنشار الميكانيكي الذي يسمعونه".ولم يكن انتقاد مامي للأمور من باب التحيز، والانتصار لطرف على طرف، بل ما ميزه أنه كان يقدم حججا، على دعواه:**"ولا ذكر (الله) والاهتزاز معه كمن يتخبطه الشيطان من المسّ ولا سبح الواحدة منها كالجوزة، على أن من يذكر الله لا تلزمه سبحة كذلك، فمخالفة الأمة بالسبح لماذا؟ والشيخ لم يأمر بذلك حتى إذا كانت له سبحة هو كتلك فلا يلزم أن يكون الفقراءكلهم مشايخا بالسبح"**[1]

ثم في الشق الآخر من مجال النقد نجد مامي ناقدا إلى حد الانتقام في المجال الاجتماعي، وهو يواكب الفرص عن كثب، الأقرب فالأقرب، ففي رحلاته الداخلية نجده يركز كثيرا على الحالات الاجتماعية التي تمر بها مدن البلاد وقراه، ومظاهره الانسانية، في حين أن رحلاته الخارجية يشير فقط إشارات بسيطة عن وضعيات بعينها، ذلك ما يجعلنا نقول، إنه ينتقد من محظ وضع نفسه في مهام صحفية ووعي ثقافي يسمح له بالكشف عن سلبيات المجتمع ككل، فنزوله بمكان يعني أنه يقوم بعملية استقصاء ومسح لكل ما يدور فيه من أحداث، ومنها النقد الاجتماعي، ففي هذه الناحية مثلا:**"ثم غادرنا إلى أولاد جلالحيث خيّم البؤس والشقاء وحيث خيّمت أنواع الفقر لجذْب تلك الأرض وبُعدها عن مُزْنِ السماء، حيث تُداس قبور الشهداء وبالأرجل، أرجل الحيوان الناطق والصّامت، ولا رَجُلٌ يسعى فيجعل لهم حَوْزًا إكراما لأرواحهم الزكيّة الشريفة"**[2]

ومامي ليس له تخصص محدد، بل هو الصحافي الذي ينقد كل الأخلاق والتصرفات والسلوكاتالمعوجة، ويصرح بأصحابها معلنا عن ما يصدر منهم، كما أنه يقدم البدائل كطرح لحل المشاكل، وقد تميز بالجرأة في ذلك، وأحيانا مثيرة، كما هو شأن الباش آغا بمستغانم الذي قام بالتسول لدفع أجر موظفه بالمقهى، وهو من الأعيان جاها ومالا، في حديث طويل ينطلق فيه مامي بالقول: **"فقلت لرفيق كان مصاحبا لي ما هذا القيطون؟ وما هذه الهياكل المنصوبة به؟ وما حقيقة هاته الصينية الموضوعة بينهم؟ فهمَس في أُذُني خِيفة البطش به وقال، هذا قيطونالباش آغا عبد الصادق قدور وهؤلاء زبانيته، والصينية يجمع بها الباش آغا الدراهم من الرعيّة لقهواجه الذي لم يخدم في شهر رمضان فيستعين بها في أيام العيد. فترى الباش آغا ينادي على المارّة بالسوق، هذا فرنكا والآخر نصف فرنك إلى أن يجمع النصيب الذي كتبه الله لقهواجه المسكين"**[3]وفي ذلك يعلل الرحالة هذا التصرف منه، من حيث خصه بحصة كبيرة من الحديث عنه بطريقة سمجة، فيقول: **"كتبنا هذه النبذة تربية لحضرة الباش آغا وغيره على شرف المنصب والوسام الدولي الذي يحمله، ويمكننا أن نكتب أكثر مما كتبنا حسبما سمعنا وروي لنا، غير..، ومبدؤنا المشاهدة والتحقيق قبل كل شيء قد يقتصر على ما سطّرت وفيه كفاية لمن كان له قلب"**[4]

أمامن حيث رحلاته خارج الوطن، جعل نقده مقايسة بين ما يجده من مظاهر ومشاهد مقارنا بها ما يقابله من سوء في الجزائر.... فيجعل نقده على مستوى مختلفا، لا ينزل به إلى القاعدة، لأنه في ذلك يعايش طبقات من

---

[1]- جريدة النجاح، العدد 132، السنة الرابعة، الجمعة 30 ربيع الأول 1342، 9 نوفمبر 1923.

[2]- جريدة النجاح، العدد 185، الجمعة 05 ديسمبر 1924. الموافق لـ 6 جمادي الأولى 1343 هـ

[3]- جريدة النجاح، السنة الثامنة، العدد 585، الأحد 8 ذو القعدة 1346 الموافق لـ 29 أفريل 1928.

[4]- جريدة النجاح، السنة الثامنة، العدد 585، الأحد 8 ذو القعدة 1346 الموافق لـ 29 أفريل 1928.

المجتمع غير التي يحتك بها في مجتمعنا المحلي، وإذا صادفه شيء من تفوق، ينقلب إلى الداء المسلط في الجزائر، فمثلا حين رأي في المغرب أن التجارة متطورة بفعل العلم والمعرفة، أضحى يعلق على ما فرطنا في جنب هذا المجال ...."**فما طلعت الشمس أوضحناها حتى وصلنا على ما ترى أيها السيّد، وفَشَا فينا داء الأمّة (الفقر) فتذكرنا ساعتئذ ما كان يلقى علينا من التحريض على العلوم والمعارف وُرمنا التنفيذ لقراءة أولادنا، فأجابنا الفقر (ألآن وقد امتنعتم قبل وكنتم من الغافلين)**"[1]

4. 2. 7. البعد الممالئ

إن ما يتحقق في شخصية مامي من تفوّق صحافي وحرصه على تشجيع القيم النبيلة ومناهضته للفساد والانحراف والشذوذ في كل شيء، وحرصه القومي ووازعه الديني، فإن ذلك لم يشفع له في مقابل ما كان يوليه للجانب الفرنسي من موالاة، ومن ممالأة لم يغفو عنها مامي ولو لحظة، فقدكان دائما وراء مباركة كل عمل تقوم به السلطات الفرنسية بالجزائر، هذا في خطاباته عموما، أما ما تحقق منها في نصوص الرحلات، نجده يخصص رحلة إلى باريس سنة 1926، وهي السنة التي افتتح فيها مسجد باريس، فعدّ ذلك النص تقريرا كاملا حول فتح مسجد باريس، في إطناب كبير للحكومة الفرنسية وما قابله من حفاوة واحتفاء.. ولعل أهم ما ميز دفاع مامي عن فرنسا، كان جله في ميدان التعليم، ذلك أنه كان ينتقد بشدة التعليم التقليدي، وكان لا يرى المخرج من نفق الجهل إلا في التعليم الفرنسي، والداعي إلى التحضر والمدنية... بل أحيانا كان يدافع عن مشروع فرنسا تجاه كل من يعترض مشروعها: "...**فنقول لهذا الكاتب البعيد أن فرنسا لم تغلط قط كما زعمت أن العربية التي علمتها فرنسا للقبائل لا وجود لها إلا في أفراد قليلين شواذ إن كنت تعني بالعربية اللغة، وإن كنت تعني بالعربية الدين الإسلامي العربي فقد كفتها مؤنة جمعيات بثّ الدين المسيحي كألبير بلان وغيرهم وعملهم في بعض النواحي القبائلية في غاية التقدّم**"[2].

ولعله يستميت في الدفاع عن مشروع فرنسا، صراحة، كعادته:"**وفرنسا دولة العلم وحبيبته لا يهمها أن يتعّلم الطالب الجزائري بالزيتونة أو الأزهر، لأن تونس ابنتها، ومصر حبيبتها، كما أنها لا يضرّها تعلّمه في أي بلد كان، وكليّة كانت، إنما يُعجبها من الطالب إذا رجع حسّن سيرته، وتديّنه، واجتهاده، في تثقيف الأذهان بالدروس العلمية وبالخطابة الجُمَعية**"[3]، ومن يمعن النظر في خطاب مامي في هذا الباب، يجده لا يمكنه أن يخطئ في شأن فرنسا، ولا يمسها في خطابه قيد أنملة.

---

[1]- جريدة النجاح العدد 150، الجمعة 8 شعبان 1342 الموافق لـ 14 مارس 1924.

[2]- جريدة النجاح، العدد 132، السنة الرابعة، الجمعة 30 ربيع الأول 1342، 9 نوفمبر 1923.

[3]- جريدة النجاح، السنة الثامنة، العدد 549، الجمعة 4 شعبان 1346 الموافق لـ 27 جانفي 1928.